هل كان لنا وجود قبل أن نولد

يلازمنى إحساس منذ بدأت أعى وأدرك وجودى أنى كنت موجودًا دائمًا وأنى حقيقة ولست أمرًا طرأ بالميلاد ، وأنى كنت هنا أو هناك فى مكان أو لا مكان لست أدرى . . إنما هو إحساس دائم ومؤكد بالحضور لا أعلم كنهه ومصدره .. وكل مايحدث أمامى الآن هو مرور شريط متتابع لأحداث متتالية لماض وحاضر..

وهو شريط يمر أمامى ولكنى فى الأعماق خارج عن هذا الشريط واقف على عتبة حضور مستمر وآنية مطلقة لا تعرف تزامنًا .. أراقب تصاريف الزمن أمامى عن بعد ، وأراقب طفولتى وصباى وشبابى وشيخوختى دون أن تدركنى أنا أى شيخوخة فأنا . . ذاتى .. شباب دائم .. وحضور دائم .

ويؤيد هذا الإحساس الداخلى حقائق الدين التى تقول بأنى أحاسب وأعاقب وأموت فلا أموت وإنما أنتقل إلى حياة برزخية ، ثم إلى بعث ثم إلى خلود فى نعيم أو خلود فى شقاء ..

فأنا إذن خالد ..

وأنا لست مسألة طارئة استجدت بالميلاد وستنتهى بالموت ولو أنى كنت أمرًا طارئًا زائلا لما كنت حقيقة ، بل مجرد ظاهرة موقوتة ، تلمع ثم تختفى فلا تعود ، ولا تصبح هناك حكمة فى بعث وحساب وعقاب . . وعلام العقاب ولا حقيقة هناك ..

وفى القرآن الكريم إشارة خاطفة إلى هذه السابقة الوجودية قبل الميلاد : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

[التين ٤ — ٦]

ومعنى ذلك أنه كان هناك خلق أولى على أحسن تقويم ..

وهذه الخلقة لايمكن أن تكون خلقتنا التى نعرفها فى الدنيا بجسمنا الذى يتعب ويمرض ويتلف ويشيخ ويموت .

والله يصف كمال خلقة السماء فيقول : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج)

[ق — ٦]

أى ليس بها ثغرات أو نقاط ضعف ومع ذلك فقد جعل الله فى

خلقتنا فرجًا وثغرة هى مدخل الشهوة والهوى ، بل إنه سمى هذا الفرج سوأة وعورة وقال فيما مافعل إبليس بآدم وحواء بأنه (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) [الأعراف : ٢٧]

فكيف يكون الخلق الذى جعله الله فى أحسن تقويم ثغرة وسوأة وعورة ، ولماذا سمى حياتنا هنا بالحياة الدنيا [أى الواطئة والسافلة] ، إلا أن تكون تلك الحياة هى أسفل سافلين التى رددنا جميعًا إليها بعد النشأة الكاملة فى أحسن تقويم . . أهبطنا الله فى هذه الجبلة الطينية التى بها الفرج والسوأة لنعيش حياة الابتلاء والمعاناة والمكابدة .

(لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ، يحرمنا مما نحب ويحملنا مانكره ليرى كيف يكون صبرنا واحتمالنا ولتظهر بذلك صفاتنا .

وإنما يظهر الإنسان على حقيقته إذا حرم مما يحب ، وإذا حمل مايكره فهنا تتفاضل النفوس فهناك نفس تحمد وتشكر ولاتعترض وتفوض الأمر إلى الله وهناك نفس تعاتب ربها وتحتج . . وهناك نفس تسب الملة والدين وتتشاجر مع الله ومع الناس .. وهناك نفس تتعجل فتسرق وتقتل وتعتدى لتصلح حالها وتنهى حرمانها ..

وهكذا تتفاضل النفوس وتظهر الحقائق ، ومن أجل هذا خلق الله الدنيا وأنزلنا الله هذا المنزل فى أسفل سافلين لتظهر لنا حقائقنا .

وماخلق الله السموات والأرض إلا بالحق وللحق ولإظهار الحق

وفى آية أخرى يقول : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) .
[الإنسان : ٢٨]

ولقد فهم السلف « شد الأسر » بأنه أشبه بشد دعائم البناء وتقويته . . ولكنى أقول ولماذا لانأخذ المعنى على ظاهره بأن الله وضعنا فى الأسر فى أسر هذه الجبلة الطينية وشد وثاقنا وبهذا أنزلنا من مرتبة الخلق فى أحسن تقويم إلى عالم أسفل سافلين وهو إهباط عام لا استثناء فيه .. وإنما استثناء الصالحين فى الآية .. هو استثناء فى الأجر بعد الموت .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

فالصالحون أيضًا يردون معنا إلى أسفل سافلين ولكن لأنهم صبروا واحتسبوا وسابقوا إلى الخيرات ، فلهم بعد الموت والخروج من عالم أسفل سافلين أجر غير مقطوع فى الجنة . أما المجرمون فمصيرهم بعد الخروج من أسفل سافلين بالموت ، العقاب بأسفل سافلين أخرى هى العذاب الأبدى فى الآخرة ... فهم فى أسفل سافلين أبدًا ..

ثم إننا نرى إشارات أخرى لهذه السابقة وهذا الوجود العلوى فى أحسن تقويم قبل النزول إلى الأرحام (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه)
[آل عمران : ٨١]

أين وكيف جمع الله النبيين وأخذ عليهم الميثاق مجتمعين ونحن نعلم

أنهم جاءوا إلى الدنيا متفرقين متباعدين بالموت والميلاد إلا أن تكون تلك الجمعية حدثت فى عالم آخر ومستوى آخر من الخلق ؟

ثم لماذا يقول المجرمون يوم انكشاف الحقائق ساعة البعث والحساب ، (ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) [غافر : ١١]

متى كانت هاتان الموتتان ونحن لانعلم ولانرى إلا ميتة واحدة .

إن هذا الكلام وثيقة هامة تؤكد وجود حياتين وموتتين .. ومعنى الموت ليس الإعدام والملاشاة ولكن النقل من حال إلى حال فالله يسمى النقل من الحياة الدنيا إلى الحياة البرزخية موتًا وإماتة .

وبهذا المعنى يمكن أن نفهم الإماتة الأولى المذكورة فى الآية بأنها كانت الإماتة عن الخلق الكامل فى أحسن تقويم وإنزال النفوس فى الأسر .. فى أسر الجبلة الطينية تعيش وتكابد بفروجها وسوآتها فى أسفل سافلين .

ثم تأتى الموتة الثانية بالنقل من هذا الحال من البلاء . إلى حال الحياة البرزخية فى القبور . . ثم يكون الإحياء الحق بالنفخ فى الصور والبعث .. فتلك حياتان « حياتنا الأولى فى أحسن تقويم وحياتنا فى الآخرة » ولاتحسب الحياة البرزخية فى القبور حياة لأنها حياة ناقصة شبحية وكذلك حياتنا الدنيا فهى الأخرى ناقصة وفانية وزائلة

ومعيبة .. (ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) [غافر : ٣٩] .

(وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) [العنكبوت : ٦٤] أى لهى الحياة الكاملة الحقة .

وحياتنا الدنيا التى خيل إلينا أنها سنوات طويلة مديدة سوف نرى حين البعث أنها لم تكن أكثر من ساعة من نهار (كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) فهى إذن حياة لاتساوى شيئًا فنحن إذن أمام حياتين كاملتين : حياتنا فى أحسن تقويم قبل الميلاد وحياتنا فى الآخرة بعد البعث .

ثم ذلك المشهد الذى استخرج فيه الله ذرية آدم من ظهره قبل ميلادها وقبل مجيئها وأشهدها على ربوبيته فاعترفت وشهدت بذلك .. متى وأين وكيف كان ذلك ؟ . .

(وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) [الأعراف : ١٧٢ - ١٧٣] .

فذلك كلام وحوار بين الله وبين كل نفس .. منفردة أو الكل مجتمعين . . الذرية كلها .. لاأحد يدرى . . يقول فيه رب العالمين .. هاأنذا قد جئت بالابن قبل أن يولد من أبيه .. حتى لاتقولوا إنما أضلنا الآباء فضللنا من بعدهم . . بل ها أنتم قد أحضرتكم من قبلهم .

« وذلك قلب لمفهوم الزمن وإتيان بالمستقبل قبل الحاضر »

ولا ندرى أين ومتى وكيف كان هذا الإشهاد ؟

وقد أقرت جميع النفوس وقالت . . بلى شهدنا يارب . ثم الحديث النبوى الثابت والصحيح الذى يقول فيه النبى عليه الصلاة والسلام « كنت نبيًّا وآدم يجدل فى طينته » فهذا إذن وجود سابق وخلق سابق على الميلاد ، وقد فهم منه الصوفيون نظريتهم التى يرددونها فى الحقيقة المحمدية . . فمحمد عليه الصلاة والسلام وإن جاء آخر الأنبياء فى البعث إلا أنه خلق أولهم بالحقيقة وذلك هو الخلق النورانى فى أحسن تقويم .

ويلزم القول أنه أمر لم ينفرد به النبي عليه الصلاة والسلام بل إن لكل منا حقيقة سابقة على ميلاده هى خلقه النورانى الأول قبل النزول فى الطين والخلق فى الأرحام .

كلنا كانت لنا سابقة وكنا حقائق قبل أن نصبح أجسادًا . والسؤال الأكبر . . هو . . ماذا قبل ؟ وماذا كنا قبل خلقنا فى أحسن تقويم وقبل تسويتنا شخوصًا نورانية ؟ وهل كنا عدمًا معدومًا ؟ إن الله يقول :

(وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا) [مريم : ٩] فنفى الله عنا الشيئية ولم ينف عنا الهوية بل إنه ليؤكد لنا هذه الهوية قبل الخلق فى آية أخرى : (وإنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) [النحل : ٤٠]

فهذا المخلوق إذا أردناه نقول له كن فيكون . فكلام الله يتوجه إلى هوية فى العدم . (نقول له) « لمن .. تلك هوية كائنة قبل أن تخلق وهذا توكيد بأنه كانت لنا هوية فى العدم وإننا لم نكن معدومين قبل تسويتنا فى أحسن تقويم « أين كنا ؟ وأين كان ذلك ؟ » .

يقولون فى العلم الإلهى المحيط الذى لايعزب عنه ذرة ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة .

كنا أسراراً مكنونة معلومة فى خزينة علمه بشخوصنا وحقائقنا وخيرنا وشرنا وطبائعنا وفى ذلك يقول ابن عربى :

إن التشخص أزلى وليس عارضًا وهو يسمى هذه الأسرار المكنونة فى خزينة العلم الإلهى وفى كنوز الجود .. يسميها « الأعيان الثابتة .. ويقول إنها قديمة وأزلية وليست بجعل جاعل .. أى أن الله لم يتدخل بجعلها على هذه الحقيقة أو تلك ولهذا يقول ابن عربى إن الله يخاطب المجرمين يوم القيامة قائلا :

« ماحكمنا عليكم ولكن هكذا كنتم » .

أى هكذا كنتم أشرارًا من الأزل لم أخلق فيكم شرًّا وإنما وضعتكم فى منازلكم ومراتبكم لم أحكم على أحد بظلم ولو عرفتمونى وسألتمونى الفضل لأعطيتكم ولكنكم أنكرتمونى ورفضتم رحمتى ورددتم يدى الممدودة وقطعتم الحبل بينى وبينكم فى الدنيا وناديتكم فلم تسمعوا وواعدتكم فلم تلبوا .

وتلك منتهى الحرية والمسئولية لاجبر ولاقهر على شيء .

الكل تلقى النداء والكل امتدت إليه اليد بالرحمة وألقيت إليه النذر وحفت به الملائكة تدعوه بالخواطر الطيبة وجاءه الرسل والأنبياء والكتب والمذكرون والمعلمون .

والذى لم يتيقظ من غفلته حاولنا إيقاظه بالبلاء وبالمكاره والمصائب حتى استنفدنا معه الأسباب .

تلك حياة ممتدة إذن .. ووجود ممتد . . له فصول .. فصل بعد فصل وخلق بعد خلق . . لم ننقطع عن الحضور لحظة منذ الأزل وإنما ظللنا فى انتقال من حال إلى حال . . لم يكن أمرنا أبدًا عدمًا معدومًا .

ألهذا يحدث دائمًا أن نحب أحدًا دون مقدمات .. أو ننفر منه دون مقدمات ؟ أيكون هذا الشعور لمعرفة سابقة ولقاء سابق قبل الميلاد فى ذلك الغيب الأول ؟ أهى ذكرى باهتة لتلك النفوس التى تعارفت وتنافرت وتحابت وتناكرت منذ الأزل ؟ ألهذا يكرر القرآن الكريم دائمًا ؟

(لعلكم تذكرون) [الأنعام : ١٥٢] (فذكر إنما أنت مذكر) [الغاشية : ٢١] (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) [يس : ٦٩] (كلا إنه تذكرة . فمن شاء ذكره . ومايذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) [المدثر : ٥٤ - ٥٦] (فمالهم عن التذكرة معرضين) [المدثر : ٤٩] (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى)

[الفجر : ٢٣] (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) [النازعات : ٣٥] (فذكر إن نفعت الذكرى) [الأعلى : ٩] (ذلك ذكرى للذاكرين) [هود : ١١٤] وكل القرآن ذكر وتذكير وتذكرة وذكرى .

ومشهد استحضار الذرية من ظهر آدم قبل ميلادها وإشهادها على الربوبية تذكير وتصوير وتجسيد إجبارى عملى واقعى لهذه القصة التى سوف تتعدد فصولا ..

أتعنى تلك الآيات أنه كانت لنا حياة قبل أن نولد .. ؟ الله أعلم بكتابه .. ولا أدعى تفسيرًا .. إنما هى محاولة فهم قد تكون خاطئة والأمر يصيب الإنسان بالخوف والرهبة والخشية والدوار إذا استجمعه كله فى ذهنه .

فما خلق الله السموات والأرض ليلهو وماخلق الإنسان سدى (وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين) [الدخان : ٣٨] (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك) [آل عمران : ١٩١] .

والأمر جاد ولاعبث هناك ، ولاندرى متى يأتى الموت وتنصب الموازين وتنكشف الحقائق وتهتك الأسرار . وإدمان التأمل يورث الرجفة فى القلب .

ماذا فى سرائرنا ؟ وماذا تخفيه الضمائر ؟ وماذا تبطن النيات وهل تستخفى فى صدورنا الحمائم أو الأفاعى ؟

لهذا خلقنا الله وخلق لنا الدنيا ونقلنا فى الأحوال وداول علينا الأيام والليالى ليكشف لنا المستور والمكنون والمكتوم من نفوسنا . (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [فصلت : ٥٣] .

ويصعب على البعض أن يتصور أنه كانت له سابقة قبل ميلاده ومع ذلك فنحن نرى الأطفال الرضع يتفاضلون بخيرهم وشرهم منذ ميلادهم فمنهم من يعض الثدى فى شره عدوانى ومنهم من يربت عليه فى حنان .

يفعل كل منهم ذلك ابتداءً وليس كرد فعل على البيئة فالبيئة واحدة فى الحالتين وهى الأم . . والأم تدرك هذا فتقول إن هذا طفل شرير وهذا طفل طيب لقد جاء كل منهم بشخصية مختلفة وأقبل على الدنيا بخيره وشره وبدأ يتصرف على وفاق حقيقة سابقة .

ألم يقل عيسى وهو فى المهد (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًّا . وجعلنى مباركًا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا) [مريم : ٣٠ - ٣١] والسؤال .. متى أتاه الكتاب .. ومتى جعله نبيًّا ومتى جعله مبارَكًا ومتى أوصاه .. وهو يتكلم فى المهد لم يكد يلقم الثدى بعد .

هذا الكلام صريح ومباشر عن أمر سبق فى مستوى من الخلق

سبق . والمتكلم وهو عيسى من البشر وليس الله لنقول بالتعالى على الزمن ومحو الحدود بين ماضى وحاضر ومستقبل . المتكلم هو عيسى بحدوده البشرية وتقيده بالزمان والمكان . . فإذا قالت الآية بماض فهو ماض لاشك فيه .

وإذا قال المتكلم إن الله أوصانى .. فإن المعنى المباشر والبسيط يجب أن نفهم منه أن الله أوصاه فى الماضى . . « قبل مولده » .

وإذا قال إن الله آتاه الكتاب . . فإن المعنى الذى يجب أن يرد على الذهن أن الله قد آتاه الكتاب فى الماضى قبل مولده .

ذلك هو مدلول اللفظ العربى .. ونحن لانتجنى على الألفاظ ولا نلويها ولا نخرجها من مدلولاتها والكلام عن الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو ، وبأنها مجرد متاع وبأنها مجرد ساعة من نهار ليس من عندنا بل من عند الله خالق هذه الحياة فهى لا تساوى عند خالقها شيئًا بالنسبة لعظمة الحياة وكمالها فى الآخرة فالحياة بحق هى حياة الآخرة وهى التى تحسب ويؤخذ لها ألف حساب وحساب ..

وحكم هذه الدنيا أشبه بحكم بروفة مسرحية فهى مهمة فقط من حيث ابتلاء الممثلين واختبار قدراتهم ولكن لا اعتبار لها فى النهاية وإنما الاعتبار كل الاعتبار للعرض النهائى على الجمهور .

أما تصور البعض أن الإنسان بخلقته الحالية . . ذلك الإنسان الذى

يبول ويغوط ويتمخط ويتعب ويمرض ويشيخ وتصيبه المعاطب والمتالف من كل جانب .. تصوره أن هذه الخلقة هى أحسن تقويم ممكن .. وأنها هى المقصودة بالخلق على أحسن تقويم .. فهذا رأى لن يوافقه عليه الكثير .. ونحن لانخرج عن مدلول اللغة حينما نتصور حالة أكمل من الخلق سبقت .. ثم جاء هذا الخلق الدنيوى فوضع الله مدخلا للهوى والشهوة فى هذا الإنسان ليمتحن صلابته وإيمانه .

وفى النهاية نحن أمام آيات تحمل أكثر من وجه ومن وجوه التفسير.

ولايستطيع أى طرف أن يدعى بأنه وضع يده على سرها أوعلم مراد الله منها .. فلا يعلم مراد الله إلا الله وإنما يجتهد الكل ويحاول الكل والمحاولات جميعها تحتمل الخطأ والصواب والعلم عند الله وإعمال الفكر فى القرآن ضرورة وليس ترفًا .

والتفكير فى السابقة والخاتمة لايشغل المسلم عن أمر مفيد فهو عين الذكر وعين الفائدة .. وهو يورث فى القلب الخشية والتقوى .

نعم إن الأمر صدق وحق . . ولاشىء يستحق البكاء من الإنسان أكثر من خطيئته ولاشىء يستحق أن يتمزق له القلب أكثر من أن يخطئ وهو يعلم أنه يخطئ ويتردى وهو يعلم أنه يتردى ، إنه لأفضل له أن يتمزق ألف قطعة كل قطعة تتألم وتتعذب ولايرتكب الخطأ ولو علمنا لما طلبنا من الله ساعة السجود إلا طلبًا واحدًا . . ألاّ نخطئ . .

وذلك هو العلم الذى هو بداية التقوى ، وذلك هو العلم الذى يبدأ على حافة الرعب .

حينما يفكر العقل فى المبدأ والمنتهى والغاية فيخر ساجدًا وهو يرتجف .. سبحانك . . سبحانك .. مغفرتك .. رضوانك ..